عزيز علي المصري
والحركة القومية العربية

مجيد خدوري

سيصدر بعد أشهر نص مطول لهذا المقال باللغة الانكليزية في « اوراق سيبت انطوني » (اوكسفورد) .
وستنشر « حوار » في عددها القادم تعقيباً على بحث الدكتور خدوري هذا ووجهة نظر اخرى في الموضوع .

لأن عزيز علي المصري اشترك في تأسيس بعض الجمعيات العربية السرية قبل الحرب العالمية الاولى، ولأنه حوكم ونفي من تركيا في ١٩١٤ واسهم في مطلع ثورة ١٩١٦ العربية، راح يعتبره الكثيرون من القوميين العرب أبا الحركة القومية العربية وبطل صراعها ضد الاحتلال التركي، مثلما كان «معبود الضباط العرب» حسب قول لورنس . غير ان خروجه المفاجىء من الحجاز بعد اندلاع الثورة بثلاثة اشهر ، في ظروف لا تزال غامضة ، يبعث الشك في حقيقة دوره بالحركة القومية . وتكاد المصادر المعاصرة ، التي تمدنا بتفاصيل جهوده ، تجمع على نسب فكرة تحقيق المطاليب العربية بالثورة اليه ، الا انها تعجز عن تفسير مغادرته الحجاز قبل ان يحقق رسالته . وتشير بعض المصادر الى خلافه مع الشريف حسين ، ولكن المصادر لا تتفق على اسباب الخلاف : هل كان خلافاً شخصياً ، ام كان سياسياً . وقد حملني هذا كله على تفحص المصادر المتوفرة ، وعلى التحقق منها مع عزيز علي المصري نفسه ومع آخرين ممن عرفوه ، لاعداد هذا المقال في تحديد دوره في الحركة العربية وتقييم شخصه وطبعه .

يعود الكتّاب العرب الذين اعتبروه بطل الحركة القومية ، في تتبعهم صلاته مع الحركة ، الى عهد تأسيس الجمعية القحطانية في اسطنبول أواخر عام ١٩٠٩ . وقد اعتبره بعضهم مؤسسها ، مع ان مصادر اخرى لا تورد اسمه بين اعضائها . وبالرغم من صعوبة الحصول على اسماء اعضاء الجمعيات السرية في ذلك الوقت ، يرد اسم عزيز علي كعضو في القحطانية في سجلات محكمة عاليه العسكرية سنة ١٩١٦. ولم تدعُ الجمعية لانفصال العرب

عن الوحدة العثمانية ، وان كان بعض رجالاتهـا قد آمنوا بحق العرب بوجود مستقل ضمن تلك الوحدة . ومن الصعب ان نعرف برامج الجمعيـات الاولى معرفة دقيقة لعدم تبلور الافكار القومية آنذاك . ويبدو انها تأسست كردّ فعل لعدم اعتراف الاتراك بحق الزعماء العرب بالتساوي معهم في مؤسساتهم ، اكثر منها لتنفيذ برامج عمـل مدروسة . غير ان بعض الكتـّاب يرى ان القحطانيـة كان لها برنامج محدد : هو تأسيس مملكة واحدة من الولايات العربية ، لها برلمانها وحكمها المحلي ، ولغتهـا الرسمية هي العربية ، على ان تكون المملكة جزءاً من امبراطورية تركيـة عربية على غرار مملكة النمسا – المجر ، وان يلبس السلطان العثماني تاج المملكتين العربية والتركية مثلما يملك الامبراطور الهابسبرغي مملكتي المجر والنمسا . يروي جورج انطونيوس ذلك ولكنـه لا يذكر مصدره . ولا تذكر المصادر الاخرى شيئاً عن برامج القحطانية غير حماية حقوق العرب وتعهد نشاطات ثقافية واجتماعية بين العرب في اسطنبول . والواقع ان فكرة بناء ذلك الاتحاد الثنـائي لم تصبح مادة حديث في الصحف والندوات الا في عام ١٩١٢ ، عندما ازداد تنبـه الزعماء العرب الى اهمية تحديد علاقاتهم العتيدة مع السلطنة . وقد شلت القحطـانية نشاطها في مدى سنة ، وانضم معظم اعضـائها الى المنتدى الأدبي الذي شاركها غاياتهـا وكان معترفاً به رسمياً .

لقد شكا عزيز علي المصري من بعض المظالم الحكومية ، مثلمـا فعل ضباط عرب آخرون كثيرون، ولكن لا يبدو انه اشترك في اي نشاط معاد للحكومة. وقد استنكر سياسة تركيا الفتاة نحو العرب في محادثة مع جمال باشا ، قبيل توجهه الى اليمن ، وحذره من نتائج تلك السياسة السيئة . والتحق عزيز ، بناء على طلبه ، بقيـادة عزت باشا لحملة اليمن في ١٩١١ التي أرسلها رجال تركيا الفتاة لاكراه امام اليمن على الخضوع بعد ان فشلوا في مصـالحته واستمر يطالب باستقلال ذاتي . الا ان الحرب لم تكن سهلة . ودلت المفاوضات التي اشترك عزيز فيها اشتراكاً فعلياً على انها اجدى من القتال . فارتفعت اسهم عزيز في أعين العرب ، ليس فقط لأنه أنهى خصاماً طويلاً بل لأن الاتفـاقية اعترفت باستقلال اليمن الداخلي . وما كاد عزيز يتم مهمته في اليمن حتى احتاجت السلطنة خدماته في شمالي افريقيا ، حيث هاجمت ايطاليا ليبيا .

دافع عزيز المصري عن برقه دفاعاً كبيراً واظهر كفاءته في تكبيد العدو بالخسائر . ولما غادر القائد العام ، انور باشا ، المنطقة الى تركيـا سلمه القيادة ، اعترافاً بشجاعته

وكفاءته التنظيمية بالرغم من الجفاء الشخصي بينهما . وزاد بلاؤه في تلك الحرب في تقدير العرب له ، ونظم شوقي قصيدة في مدحه .

ما ان عاد عزيز علي الى اسطنبول، وقد تأزمت العلاقات العربية التركية كثيراً، حتى بدأ ينظّم مؤسسة العهد السرية التي حصرها بين العسكريين والتي تعتبرها المصادر العربية انشط الجمعيات في الدعوة الانفصالية بين العسكريين وضاهى نشاطها نشاط زميلتها الفتاة بين المدنيين . مثلما تعتبر عزيزاً ابرز ضابط عربي في اسطنبول في تلك الفترة واجرأهم على تحدي الحكومة دفاعاً عن حقوق العرب . وبلغت شعبيته ذروتها لما وقع ضحية انور باشا الذي حاول تحطيمه محاولة تعتقد تلك المصادر انهـــا استهدفت الاطاحة بكل الضباط العرب . ولما اعتقل نهضت الجالية العربية باسطنبول احتجاجاً . ومع ان التهمة ضده كانت التلاعب بعشرين او ثلاثين الـــف جنيه سلمه اياها انور باشا قبيل مغادرته برقه ، ترفض المصادر العربية التهمة وتؤكد ان نشاطه القومي كان السبب الحقيقي وراء اعتقاله، بدليل اتهامه ، خلال المحاكمة ، بنشاط ضد الدولة كتشجيـــع فكرة الاستقلال العربي ومحاولة تأسيس مملكة عربية في شمالي افريقيا . كان اعتقال عزيز علي ، بالنسبة الى كثير من العرب ، دليلاً جديداً على سوء نية الزعماء الاتراك . لذلك نقموا وضغطوا على الدولة حتى اضطرت الى ابدال حكم الاعدام بالسجن خمس عشرة سنة مع الاشغال الشاقة ، ثم الى اخراجه من البلاد بعد اسبوع من صدور الحـكم .

لكننا ان درسنا الرجل دراسة نقدية رأينا له صورة اخرى غير تلك التي تقدمهـــا المصادر العربية . ويجب ان تراعي مثل هذه الدراسة اصله العائلي ونشأته في مصر ، اذ لا بد انها اثرا في سيرته باسطنبول والجزيرة العربية ومصر .

لم يكن اجداد عزيز علي عرباً في الاصل ، ولا كانوا مصريين . فقد عرف عن ابيـــه وجده انهما كانا شركسيين ، وعرفت العائلة باسمها الشركسي قبل ان يحمل عزيز لقب « المصري » في اسطنبول . اي ان عزيزاً عرف انه ليس عربي الاصل بالرغم من لغته العربية بحكم مولده في مصر . صحيح انه لم يكن كل رفاقه عرباً في الاصل ، ولكن لعلهم لم يعوا حقيقة لا عروبة اصلهم كما وعاها هو ، اذ انهم ادعوا الانتساب الى اجداد عرب حقيقيين او خياليين .

وقد جعله كل من اصله الشركسي وتمسكه بالاسلام ان يخلص لمصر وللخلافة العثمانية

بالتساوي . وكانت مصر لا تزال تحت السيادة العثمانية اسميا ، وكان الرأي العـــام فيها متحمساً لتقوية الصلة مع السلطنة . لذلك كان طبيعياً ان يشعر عزيز ، عند وصوله اسطنبول ، بأنه كأنما في بلده . واسهم في ذلك الشعور الجو الفكري في مصر ، الذي خبره عزيز قبل سفره عام ١٨٩٨ . كانت مصر ، على خلاف البلدان العربية الاخرى التي قاست من سوء حكم الاتراك ، تخضع للانكليز منذ ١٨٨٢ ، مع انها بقيت رسمياً ضمن الامبراطورية العثمانية . فشددت الحركة الوطنية على سلطة تركيا على مصر املاً بأن يحرر ذلك مصر من الاحتلال البريطاني . وقد وجدت الحركة، بقيادة مصطفى كامل في اواخر عهد كرومر ، رد فعل قوياً في الشعب .

في هذا الجو نشأ عزيز . اراد بادىء الامر ان يدرس في فرنسا ليصبح ضابطاً يطرد الانكليز من مصر ، وكانت فرنسا تعتبر مهد الحرية . ولكن الامل فيها تبخر ، وخاصة لما اتفقت مع بريطانيـــا في ١٩٠٤ على توزيع مناطق النفوذ بينهما . لذلك ذهب عزيز ليدرس في تركيا حيث كان الخبراء العسكريون الالمان ممن تمتعوا بسمعة طيبة في السلطنة. فوجد عزيز نفسه في جو ملائم في اسطنبول : يستطيع ان يعبر عن رأيه ضد الاحتلال البريطاني ولصالح انتماء مصر الى السلطنة . ومكنه شعوره الودي نحـــو السلطنة من الحصول على شعبية بين زملائه وهو يدرس في الكلية الحربية . وكان طالباً بارعاً ، فتابع دراسته في كلية الاركان ، وتخرج بامتياز . وزكاه جنرال الماني استاذ له عند السلطان ، فاعطي مركزاً عسكرياً رفيعاً – وارسل ، اثر تخرجه ، الى مقدونيا . فنجح في تعقب العصابات البلغارية ، وانضم ، وهو في البلقان ، الى حزب الاتحاد والترقي ، واسهم في انجاح الحزب واستلامه السلطة عام ١٩٠٨ ثم في قضائه على مؤامرة خصومه عام ١٩٠٩ .

تمتعت القوميات المختلفة التي املت ببزوغ فجر الحريةوالمساواة بفترة قصيرة من الاخاء اثر استعادة الحياة الدستورية. ولكن الاتحاديينلم يكونوا متهيئين لمعالجة مسألة القوميات. وقد اخاف متطرفوهم ، ممن دعوا الى سياسة التتريك، القوميات الاخرى . وعجز الزعماء الرئيسيون الثلاثة (طلعت وانور وجمال) عن الاتفاق على رمز للوحدة : فقد دعا اولهم الى الرابطة العثمانيـــة ، ودعا ثانيهم الى الجامعة الاسلامية ، كما دعا ثالثهم الى القومية . فحصلت فوضى في الرأي ، ووجدت تلك القوميات فكرة الانفصال التام حلاً لمعضلتها .

رأى عزيز علي ، وكان عضواً بارزاً في حزب الاتحاد وداعية للوحدة العثمانية ، خطراً بالغاً في سياسة التتريك ، ونصح بالاعتدال . وكان صديقاً لعدد من زعمـــاء القوميات

المختلفة ، فحاول ان يقيم تفاهماً بينهم وبين الحزب . فقد آمن ان الطريقة الفضلى لصيانة وحدة مجتمع متنوع العناصر ، كالامبراطورية العثمانية ، ليست في كبت تلك القوميات بل في الاعتراف بكل منها كوحدة مستقلة ذاتياً داخل الكيان العثماني الكبير . حتى انه حدّث بعض اقرانه برأيه ودعاهم للتباحث به في بيته. فشك منافسوه في الحزب به، وهو العثماني غير التركي ، وتكوّن الانطباع الخاطىء بأنه نصير القوميات المهضومة الحقوق . وبسبب زياراته الى المنتدى الادبي ظن البعض انه يؤيد مطالب الجالية العربية التي كان يتكلم لغتها . وكان هو قد انضم الى الجمعية القحطانية السرية التي أسسها صديقه سليم الجزائري سنة ١٩٠٩ . ويبدو ان الحكومة عرفت أسماء الاعضاء . ولا بد ان آراءه في مشكلة القوميات ، وسوء علاقاته مع الزعماء الاتحاديين ، أديا الى عجز الحكومة عن الاعتراف بخدماته للدولة .

وكان اشدّ ما اضرّ به نزاعه مع انور باشا . ويبدو ان اصل النزاع شخصي : فقد كان عزيز علي ينتقد انور حتى لما كان لا يزال عضواً نشيطاً في الحزب ، ونال منه في كلامه مع بعض اصحابه الاتراك والعرب وهما في الخدمة معاً في برقة . وواصل عزيز هجماته بعد ان عاد انور الى اسطنبول وأصبح وزيراً للحربية . وأيد العرب عزيزاً في انتقاداته ، مما حمل بعض الاتحاديين على اتهامه باثارة المشاعر القومية والسعي لاستقلال العرب . وهكذا فان القوميات المتنافسة استغلت النزاع بين الضابطين ، مع ان العنصر الشخصي كان عاملاً رئيسياً فيه . الا ان هناك عاملاً آخر في الموضوع : آمن عزيز بوجوب الاعتراف بهوية القوميات المختلفة كسبيل للحفاظ على الوحدة العثمانية ولحماية الامبراطورية من التفتت . وهكذا لما عقد الزعماء العرب مؤتمراً في باريس (حزيران ، يونيو ، ١٩١٣) وأصدروا قرارات تطالب بنقل السلطات الى المقاطعات ، انتقدهم عزيز لعقد المؤتمر في عاصمة بلد اجنبي ولأن الدولة كانت آنذاك في حرب مع دول البلقان ، مع انه وافق على مبادىء المؤتمر الاساسية . ومن اجل الوحدة العثمانية اسس عزيز جمعية العهد لتحقيق الوحدة بين الاتراك والعرب . واتخذ حله لمعضلة الخلاف التركي العربي شكل مشروع اتحادي عريض على غرار اتحاد النمسا — المجر ، تعطى الاقليات فيه استقلالاً ذاتياً . وقد اخبرني عزيز علي ، بصراحة ، ان الاعضاء الاصليين في العهد (الذي عبّر ميثاقه عن ذلك الحل تعبيراً غامضاً) كانوا عرباً وأتراكاً، ولكن العرب سيطروا على الجمعية بعد مغادرته اسطنبول، وأصبحت ثورية بالعلن بعد ان فشل العثمانيون في تنفيذ مطالب مؤتمر ١٩١٣ .

تميز انفصام علاقات عزيز علي مع الاتحاديين باعتقاله ونفيه من اسطنبول في نيسان (ابريل) ١٩١٤ . وقد رسم الحادث له، على غير ما أراد، صورة اخرى في اعين العاملين نحو تعاون تركي عربي ، لأن الحادث أعطى انور باشا ذريعة لاتهام عزيز بالثورية ، مع ان الخلاف بينهما انبثق عن منافسة شخصية وحسد . الا ان الزعماء العرب الثائرين ضدالمظالم التركية استغلوا الحادثوبايعوا عزيزاً زعيماً للتحرر العربي ضد الاستبداد التركي ، وادعوا انهم هم انقذوه من الموت باستنجادهم بالبعثات الدبلوماسية الاجنبية. والواقع ان العناصر التركية المعتدلة لم ترض عن محاولة انور لسحق عزيز ، وان جمال باشا توسط لوضع حـــد لمسعىانور خوفاً من نتائج تلك المحاولة ودعا انور للعفو عن عزيز مقابل نفيه من السلطنة ومنعه من تعاطي السياسة التركية .

أدى طرد عزيز علي من العاصمة العثمانية الى تعليـل انشقاقه عن حزب الاتحاد والترقي بنشاطات ثورية ، فاتصلت به العناصر المعارضة لتركيا عند نشوب الحرب ليسهم معها في العمل ضد الحكم العثماني . ولكنه فضل البقاء في القاهرة بدون نشاط . وهناك دليل آخر على استمرار ايمانه بالوحدة العثمانية ، تبدى عندما أعلن شريف مكة ، الحسين ، الثورة العربية عام ١٩١٦ . لقـد اهتم القوميون العرب بالثورة اهتماماً واسعاً اذ أملوا ان تحقق امانيهم القومية ، وانضم اليهـا عدد من الضباط العرب ممن خرجوا على الجيش العثماني او ممن اسرهم البريطانيون . وتوقع العرب والانكليز ان يستغل عزيز الفرصة ، وقد اذيـع انه زعيم انقلابي . فدعي الى الانضمام الى الثورة . الا انـه تردد لأنه ، حسبما قال لي ، لم يكن يعرف ما اذا كان الشريف قد ثار لمنع الاجانب من حكم الحجاز او عصياناً للسلطان وتحقيقاً للاستقلال . فذهب الى الحجاز ليعرف نوايا الشريف وليبلغه رأيه بأنه ضد فكرة الانفصال التام عن الخلافة العثمانية ، وبأنه يرى ان الهدف المباشر للثورة يجب ان ينحصر في منع تفاقم الخصام البريطاني التركي في الحجـــاز واقامة استقلال عربي ذاتي من داخل الوحدة العثمانية. لم يتحمس الشريف،وقد وجد هذا الضابط الشاب صلب الرأي، لأن يعهد اليه بالقيادة العسكرية العليـا ؛ ولكنه استخدمه سمعاً لنصيحة السلطات البريطانية التي أدركت حاجة الشريف الى ضباط مدربين ، انما اشترط على عزيز علي وغيره من الضباط البقاء تحت امرة أبنائه . فوضعت قيادة العمليات الفعلية في ايادي هؤلاء الضباط ، وعيّن عزيز رئيساً لأركان الحرب في ايلول (سبتمبر) ١٩١٦ ، بينما عهد بالقيادة الاسمية للجيش

النظامي الى الشريف علي في رابغ .

ما ان مارس عزيز علي عمله حتى اصطدم مع الحسين ، وهو الرئيس الصعب جداً ، على حد تعبير انطونيوس ، بالنسبة لرجل نظامي مثل عزيز . وتخيل الناس ان هذا الاصطدام هو الذي يفسر مغادرة عزيز الحجاز بعد ثلاثة اشهر من وصوله . ولكن هذا السبب، على اهميته ، أبسط من ان يفسر تخلي عزيز عن ثورة اعلنت لصالح القومية العربية . لأنه اذا كانت الثورة قد قامت لتحقيق مبادئه القومية، فان تصرفه يعني انه ضحى بتلك المبادىء في سبيل حبه للنظامية ونتيجة للخلافات الشخصية . لذلك نرى ان هنـاك اسباباً اخرى لخروجه من الحجاز .

لم تكن أهداف الحسين واضحة تماماً ولم يكن جلياً هل أراد فصل الحجاز عن السلطنة او أراد استقلال البلاد العربية كلها . لذلـك تناقش الضباط العرب في رابغ في الموضوع واختلفوا فيما اذا كان يجب على الشريف ان يحرر الحجاز فقط او ان يطرد الاتراك مـن سائر البلاد العربية بعد تحرير الحجاز. واذ توجس عزيز علي في الشريف رغبته في الانفصال التام ، تباحث مع الضباط بمخطط يهدف لعرقلة تلك الرغبة لمـا بدىء بالاستعداد الجدي للهجوم على المدينة (تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩١٦). وروى عزيز علي المصري لي انه اقترح ان تتصل جماعة من الضباط بالقيادة العثمانية في المدينة ، اتصالاً سرياً، عند المباشرة بالهجوم ، وان يصار الى تفاهم بين الطرفين ، فبدلاً من الهجوم على المدينة تسير قوة عربية تركية مشتركة ، بقيادته، نحو مكة رأساً ، فتتسلم القيادة العليا من الحسين وتعقد صلحاً مع الحكومة العثمانية اساسه استقلال العرب ذاتياً ضمن الخلافة . وفكر عزيز علي، ايضاً، باجراء اتصال آخر مع السلطات الالمانية والعثمانية في سوريا ، أملاً بالوصول الى حل مماثل في جميع الاراضي العربية. ومضى عزيز المصري يقول ان الضباط العرب الذين دعوا للتعاون مع الانكليز وشوا بمخططه الى الشريف علي ، الذي أوقف الهجوم على المدينـة . ففشل مخططه ، ولم يعد الحجاز المكان الصالح لتحقيق أفكاره . ولم يعد الحسين يرضى عن بقائه قائداً لقواته ، فحملته سفينة حربية بريطانية الى مصر .

وبدأت ، بانسحاب عزيز علي من الثورة وتخليـه عن الحركة التي بنت له سمعته ، سلسلة انتكاسات لم يكن له مفر منها . فقد ابدى معارضته لسياسة بريطانيا تجاه العرب وتأييده للتعاون مع المانيا وحليفاتها. اذ انه آمن، كالكثيرين من زملائه الضباط العثمانيين، بقدرة المانيا على كسب الحرب وتحرر مصر ، بالتالي ، من الاحتلال وعودتها الى الحظيرة

العثمانية بعد انحلال الامبراطورية البريطانية . وفي حين رحب القوميون في البلدان العربية الى الشرق من مصر بمساعدة بريطانيا للثورة املاً بالاستقلال ، اعتبر عزيز ، شأنه بذلك شأن سائر القوميين في مصر ، تلك الثورة ضربة للوحدة العثمانية . وظن ان مؤازرته لالمانيا قد يحملها على الضغط على السلطان ليعيد بناء امبراطوريته على اساس لا مركزي مع ابقاء مصر وسائر ارض العرب ضمن الاطار العثماني ، حسب برنامج جمعية العهـــد . لذلك حاول الذهاب الى سويسرا ، ومنها الى المانيا ، بعد اشهر من وصوله القاهرة . وكانت الحياة فيها، حيث الحكم العسكري والرقابة ، صعبة على رجل اعتاد التكلم بحرية. فلم يسمح له بالسفر الا الى اسبانيا ، وهو البلد المحايد الذي تفصله عن الدول المعادية أرض حليفة . وبقي هناك الى آخر الحرب. ولما سقطت المانيا اغتمّ وفكر بالانتحار . ثم سافر اليها وظل فيها الى ان نالت مصر استقلالها عام ١٩٢٢ ، فاعتقد ان القومية المصرية قد نجحت وان له دوراً خاصاً عليه ان يلعبه في حياة مصر الاستقلالية الجديدة .

وقبل ان يعود الى مصر كان قد وصل الى اسماع ملكها ان عزيزاً على اتصال مع عباس حلمي ، الخديوي المخلوع والمطالب بعرش البلاد. فقضى ذلك على حظه في خدمة بلاده . لذا خرج ، بعد اقامة قصيرة في القاهرة ، في جو تنافس سياسي حاد ، يبحث عن عمل في مكان آخر : فزار سوريا والعراق وايران في ١٩٢٣ ، وكان في العراق جمع من زملائه السابقين . وكاد ينال منصب رئيس اركان حرب الجيش العراقي لو لم يتورط في قضايا سياسية : اذ انه لم يعارض تعاون القوميين مع بريطانيـــا فحسب ، بل دعا ضد السياسة البريطانيـــة نحو العرب . فاعتبر ملك العراق وجوده خطراً على التوازن الذي اقامه بين المعارضـــة والمعتدلين – وكان فيصل يدين بعرشه للانكليز ويحاول كسب الاستقلال دون اغضابهم . ذلك ان المعارضين التفوا حول عزيز المصري اثر مجيئه الى بغداد بالرغم من تحـذير الحكومة له بعدم التدخّل بالسياسة المحليـة . فلم ينتج شيء عن الحديث عن استخدام الحكومة العراقية له، بالرغم من اشادة الكثيرين بكفاءاته ومقدرته. ثم انه قابل المندوب السامي البريطاني مقابلة عاصفة . ومن بغـــداد سافر الى طهران واجتمع برضا خان (الشاه فيما بعد) الذي عرض عليه تنظيم الجيش الايراني ، ولكن العرض كان لوقت لاحق . فعاد عزيز الى القاهرة فارغ اليدين ، وانسحب من الحيـــاة العامة ثلاث سنوات او اربعا ، تزوج خلالها فتاة امريكية اسمها فرنسس دريك – وقد انفصل عنها قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية .

لم ييأس عزيز علي من قيام فرصة ينتهزها للعمل في الحياة العامة. فاتصل بسعد زغلول في ١٩٢٧ ، واعجب سعد به ووعده بمركز مهـــم في حزب الوفد (بنيابة الرئاسة ، كما اخبرني عزيز) . ولكن موت سعد ترك الحزب في ايـدٍ رغبت عن وجوده في الوفد ، فلجأ عزيز الى سياسيين اصدقاء للبـــلاط الملكي ، فأعطي فرصة تؤهله لاعلى المراكز في القصر لو توافرت له صفات الحاشية. لكنه ، نظراً لاقتناعه بافضلية النظامية العسكرية على الدهاء السياسي ، اصطدم مع فاروق اصطداماً لم يكن منه بدّ . اذ انه ، بعد ان عمل مدة في معهد تدريب الشرطة ، عين مرافقاً لفاروق (وكان ولياً للعهد) عند ذهابه الى بريطانيا للدراسة عام ١٩٣٥ . ففرض عزيز عليـه نظاماً عسكرياً صارماً . وكان فاروق مدلعاً مفسداً ، فاصطدما ؛ وتخلى عزيز عن المنصب وعاد الى مصر . وكان واضحاً انه لا يناسب حاشية القصر ، وهو الصريح في انتقاد الاخطاء .

أعطت الحرب العالمية الثانية عزيزاً الفرصة لتولي منصب رئيس اركان الحرب وقيادة الجيش المصري . وكان علي ماهر قد ترأس الحكومة في ١٩٣٩ وضم اليها عناصر معـادية للانـكليز . ولكن الانـكليز اضطروا الحكومة للاستقـالة (حزيران ، يونيو ، ١٩٤٠) واستبدلوها بحكومة موالية لهم استغنت عن خدمات عزيز علي وحدّت من نشاطه المعادي للحلفاء . وكان عزيز على اطلاع على نشاطات الضبـــاط الاحرار وكان يشجع نفسيتهم الثورية . فلمـا وضعت خطة لاعلان ثورة ضد الانـكليز ، على غرار الثورة التي أُعلنت في العراق في ١٩٤١ ، وافق عزيز على الاتصال بالالمان في برقه ودخول مصر معهم . ولكن طائرته تحطمت وهي تحـاول الاقلاع ، وأُسِر وحوكم وسُجن بتهمة التآمر على سلامة الدولة . الا ان علاقته بالضبـاط الاحرار لم تنقطع ، واستمر يتصل بهم ، وكان أباً روحياً لهم .

لقد تحلى الرجل ، منذ صغره ، بالشجاعة والاستقامة والقوة الجسدية والذكاء الحـاد والشغف بالعلم – وهي صفات تعبّـــد للشاب عادة طريقه في المجتمع . واذ نشأ عزيز في أواخر عهد كرومر ، الحافل بالشعور الشعبي المعادي للانـكليز ، فانه نمـا في جو يخاصم سيادة اوربا السياسية . وقد أثار القوميون المصريون ، المعارضون للاحتلال ، ولاء للسلطنة متعمداً ، بحيث اختلطت الوطنية المصرية بالغيرة الاسلامية التقليدية . في هـذا الجو نال عزيز ثقافته الابتدائية . وقررت هـذه العوامل العاطفية مصيره اثر تخرجه من الدراسة

الثـــانوية ، من حيث انه ذهب الى اسطنبول بدل باريس او لندن ، ولولا التعصب ضد النفوذ الاوربي لكان ذهب الى اوربا ودرس فيها ولكان رأيه بالعلاقات العربية البريطانية أكثر اعتدالاً . اما في اسطنبول فان دراسته العثمانية لم تحسن ثقافته الاولى كثيراً ، الا في مجال التدرب العسكري . بل انه في هذا المجال ايضاً استولى على عزيز الاعجاب المطلق بالنظامية العسكرية وبفنون القتـــال الالمانية ، وهو الاعجاب الذي كان سائداً آنذاك في السلطنة .

كان لاسطنبول العهد الحميدي المتأخر أثر آخر في مصير عزيز علي . فقد اختلط ، وهو بعد طالب في الكلية الحربية ، بضباط نظروا الى تدخلهم العملي بالسياسة لانهاء الاستبداد الحميدي واعادة الحكم الدستوري على أنه واجب وطني . وأدى نشاطهم السياسي ، الذي أنهى الحكم الحميدي ، الى انتقـال السلطة من المدنيين الى العسكريين ، والى ارتقاء بعض أصدقاء عزيز وزملائه الى أعلى المراكز السياسية . وعندما يخوض العسكريون السياسة لا يحصل على المراكز السياسية الا اولئك الذين يلعبون اللعبة السياسية بمهارة بينما يظل غيرهم: ممن لا يضحون بالنظامية العسكرية في سبيل الصراع السياسي ، مثل عزيز ، في مراكز ثانوية . ذلك ان السياسة تتطلب صفات معينة لا تقبل بها الحياة الجندية ، ان كانت تلك الجندية تسعى نحو نظاميـة عسكرية رفيعة . فعلى الضابط الذي يريد ان يصبح سياسياً ناجحاً ان يقبل بمستوى لا يرضى به الضابط الممتاز . وقد توقع عزيز ، وهو الضابط الممتاز الذي يرفض المستوى الذي يقبـــل به السياسي ، ان يحقق ظفراً سياسياً بمجرد ان يحقق نظامية عسكرية رفيعة . فحسد انور باشا ، الذي لم يساوه في النظامية العسكرية ولكن بزه سياسياً لقدرته على استغلال القوى السياسية لصالحه ، وهي قـدرة أعوزت عزيزاً . غير ان المعارضين ، وخاصة العرب منهم ، استغلوا ذلك واتخذوا من خلافه مع القـــادة الاتراك ذريعة لاستنكار سياسة الحكومة نحو العناصر غير التركية وجعلوا عزيزاً بطـل القوميات الثائرة على الوحدة العثمانية . ووجد عزيز نفسه ، وهو المؤمن بتلك الوحدة ايماناً راسخاً ، في خضم نشاط معارض يهدد الوحدة . فارتاب اصدقاؤه الكبار به ، ولم يكن بوسعه ان يخلص نفسه من هذا المأزق .

كانت الدعوة لعزيز علي للاشتراك بالثورة العربية الاختبار الذي دل على صموده وصلابة معتقده الشخصي . فلو كان سياسياً انتهازياً يطمع بالسلطة والجاه ، لتبوأ مراكز أعلى ممـا تبوأ فيما بعد بعض مساعديه السابقـــين ، كجعفر العسكري ونوري السعيد . فذهب الى

الحجاز وهو لا يرغب بتدمير الوحدة العثمانية بالرغم من ايمانه بحق العرب بكيان ذاتي . ولما اكتشف سعي الحسين نحو الاستقلال التام عمل على التعاون مع الالمان لصيانة الوحدة العثمانية . وهكذا كان عزيز مثالياً ، ضحى بالسلطة من أجل حلم يشك في واقعيته راود مخيلته منذ أيام اسطنبول . ولا شك ان هناك عوامل عاطفية أسهمت في محاولته للتعاون مع الالمان بدل الانكليز ، مثل اعجابه بالنظامية العسكرية الالمانية وكرهه الاصيل للانكليز بسبب احتلالهم مصر . ولكن محاولته تلك كانت بعيدة عن أي طمع بمكاسب سريعة . وقد قيل ان انفصاله عن الشريف كان بدافع شخصي أكثر مما كان سياسياً ، نتيجة لعصيانه رؤساءه . ولو كان لهذا العنصر الشخصي أثر في قرار عزيز لعكس شيئاً عن قوة شخصيته وعن صفاته .

بل ان عزيزاً لم يبدِ استعداداً لتبديل رأيه بعد ان اثبتت الاحداث خطأ افكاره . فقد استمر يعجب بالنظامية الالمانية الى الحرب الثانية دون ان يكوّن فكرة عن العالم الذي سيبزغ بعد انتصار الالمان . فظن انه مجرد انتصار الالمان سيحقق احلامه مهما كانت غير واقعية. وقد سيطر على عقله التفكير بالتغيرات الاجتماعية عن طريق الحرب والثورة، اذ آمن انه ما من تقدم الا بالقضاء على النظام الاجتماعي التقليدي. وانبثق عن هذه الآراء ، المثالية في جوهرها ، انطباع بأن عزيزاً ليس الا رفيق طريق ومجرد مغامر يركض وراء السلطة ، وهو انطباع اخاف الكثيرين من رفاقه ممن كانوا ليستعينون به في الشؤون العامة لولا ذلك الانطباع . الا ان عزيزاً مثالي في صميمه ، يسعى لاعادة صياغة المجتمع ولاقامة الحرية والمساواة والمبادىء الانسانية عن طريق العنف (أي الثورة) . غير انه خصص للبحث عن تحقيق مثله الاعلى وقتاً اطول مما خصص للبحث في نوعية ذلك المثل وفي طبيعته . وكانت وسائل تنفيذ اهدافه أكثر اهمية من الاهداف نفسها ، بالنسبة اليه . وذلك لأنه لم يكن في الواقع مفكراً اجتماعياً ، وانما كان بنّاء تستهويه آراء براقة سعى الى تحقيقها عن طريق وسائل ثورية . وقلما يستطيع انسان له هذه السيرة المغامرة ان يبلغ تلك السن المتقدمة التي بلغها عزيز : فقد نجا من الموت في اللحظة الاخيرة أكثر من مرة ، وسجن أكثر من مرة، ونفي . وقد بقي مثله الاعلى المتحقق عن طريق الثورة سراباً ، لأنه لم يكن لأي من المشاريع التي وضعها أدنى حظ من النجاح . الا ان ثورة مصر في ١٩٥٢ ، التي استوحى ضباطها آراءه الثورية ، يمكن ان تعتبر تحقيقاً جزئياً لمثله الاعلى الذي عاش في ذهنه امداً طويلاً .